

تفسير ابن كثير

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ^ط
فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي^ج
أَخَافُ اللَّهَ^ج وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وقوله : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم

(الآية ، حسن لهم - لعنه الله - ما جاءوا له وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم

اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال :

أنا جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، سيد بني مدلج ،

كبير تلك الناحية ، وكل ذلك منه ، كما قال [الله] تعالى عنه : (يعدمهم ويمنيهم وما

يعدمهم الشيطان إلا غرورا) [النساء : 120] . قال ابن جريج قال ابن عباس في هذه

الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى في قلوب

المشركين أن أحدا لن يغلبكم ، وإني جار لكم . فلما التقوا ، ونظر الشيطان إلى إمداد

الملائكة ، (نكص على عقبه) قال : رجع مدبرا ، وقال : (إني أرى ما لا ترون)

الآية .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين ، معه رايته ، في صورة رجل من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) فلما اصطف الناس أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا مدبرين وأقبل جبريل ، عليه السلام ، إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقه ، أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : (إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) وذلك حين رأى الملائكة .وقال محمد بن إسحاق : حدثني الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ؛ أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فلما حضر القتال ورأى الملائكة ، نكص على عقبيه ، وقال : (إني بريء منكم) فتشبث الحارث بن هشام فنخر في وجهه ، فخر صعقا ، فقليل له : ويلك يا سراقه ، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا . فقال : (إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) وقال محمد بن عمر الواقدي : أخبرني عمر بن عقبة ، عن

شعبة - مولى ابن عباس - عن ابن عباس قال : لما تواقف الناس أغمي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساعة ثم كشف عنه ، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر ألف . وإبليس قد تصور في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي ، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس . فلما أبصر عدو الله الملائكة ، نكص على عقبيه ، وقال : (إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون) فتشبث به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه ، فضرب في صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ، ورفع ثوبه وقال : يا رب ، موعدك الذي وعدتني . وفي الطبراني عن رفاعه بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه ذكرناه في السيرة . وقال محمد بن إسحاق : حدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب ، فكاد ذلك أن يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي - وكان من أشرف بني كنانة - فقال : أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعا . قال محمد بن إسحاق : فذكر لي أنهم كانوا

يرونه في كل منزل في صورة سراقه بن مالك لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر والتقى
الجمعان ، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو : عمير بن وهب - فقال :
أين ، أي سراق ؟ ومثل عدو الله فذهب - قال : فأوردتهم ثم أسلمهم - قال : ونظر عدو
الله إلى جنود الله ، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه ، وقال : (إني
بريء منكم إني أرى ما لا ترون) وصدق عدو الله ، وقال : (إني أخاف الله والله
شديد العقاب) وهكذا روي عن السدي ، والضحاك ، والحسن البصري ، ومحمد بن
كعب القرظي ، وغيرهم ، رحمهم الله . وقال قتادة : وذكر لنا أنه رأى جبريل ، عليه
السلام ، تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال : (إني أرى ما
لا ترون إني أخاف الله) وكذب عدو الله ، والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا
قوة له ولا منعة ، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق
والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم عند ذلك . قلت : يعني بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى
: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله) [
الحشر : 16] ، وقوله تعالى : (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم 75 وعد

الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) [إبراهيم : 22] . وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ، عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول : لو كنت معكم الآن بيدرومعي بصري ، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى . فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس ، وأوحى الله إليهم : أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، وثبتتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه ، فيقول له : أبشر فإنهم ليسوا بشيء ، والله معكم ، كروا عليهم . فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : (إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون) وهو في صورة سراقه ، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول : لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه . ثم قال : واللوات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الجبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا . وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا : (

إن هذا لمكر مكترموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) [الأعراف : 123] ، وكقوله (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) [طه : 71] ، وهو من باب البهت والافتراء ، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة . وقال مالك بن أنس ، عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ما رأيي إبليس في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر . قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل ، عليه السلام ، ينزع الملائكة . هذا مرسل من هذا الوجه .